الأوزاعى

٨٨ هـ — ١٥٧ هـ

أحد أصحاب المذاهب المندرسة

بقلم عبد القادر على الجاعونى

حياة الأوزاعى :

يؤخذ من المصادر التى بين أيدينا أن اسمه عبد الرحمن[١] ابن عمرو بن يُحْمِد[٢] وكنيته أبو عمرو ، ولقبه الأوزاعى نسبةً إلى أوزاع[٣] ، ولقد اختلف فى معنى هذه الكلمة ، فمن قائل إنها بطن من ذى الكلاع من اليمن « وقيل بطن من همذان[٤] » ، وقيل إن الأوزاع قرية بدمشق خارج باب الفراديس[٥] . ومهما يكن من أمر ، فان لقبه نسبة الى هذه الكلمة ، إذ أن جميع المصادر تتفق على هذا اللقب ولكنها تختلف فى حقيقة أصله

ومن الثابت تاريخياً أن مهبط رأسه مدينة بعلبك[٦] ، وتكاد المصادر تتفق على أنه ولد سنة ٨٨ هـ[٧]

أما نشأته وحياته فلا نعرف عنهما شيئاً ، لأن المصادر التى بين أيدينا تكاد تكون صامتة كل الصمت ، فهى تتخطى هذا الدور بسرعة هائلة وتبرزه لنا « إمام أهل الشام »[٨] فى عصره ، اللهم إلا ما ذكره ابن خلكان من أنه نشأ فى البقاع

قلنا إن الأوزاعى ولد فى بعلبك ، ونشأ فى البقاع ، إلا أنه لم يقض حياته فى مهبط رأسه ، وسرعان ما انتقل الى دمشق خارج باب الفراديس[٩] ، ثم ارتحل الى بيروت[١٠] تلك المدينة التى قضى بها حياته حتى أدركته الوفاة

ولقد كان رحمه الله فوق الربعة ، مائلاً الى السمرة ، خفيف اللحية[١] ، ويظهر أنه كان يميل إلى التزين ، فقد « كان يخضب بالحناء »[٢]

ولقد أخذ العلم عن عطاء وابن سيرين ومكحول[٣] ، والثورى[٤] . ولقد زاد عليهم أبو زكريا النووى صاحب كتاب تهذيب الأسماء رجالاً من التابعين أهمهم قتادة ، ونافع مولى ابن عمر ، والزهرى ، ومحمد بن المنكدر[٥] . وأهم تلاميذه : عبد الله ابن المبارك ، وهقل[٦] وهذا الأخير أصدق الرواة وأثبتهم عن الأوزاعى ، وروى عنه جماعة من الذين سمعهم كقتادة والزهرى وغيرهم[٧]

* * *

كان الأوزاعى من تابعى التابعين[٨] ، وقد قال الذهبى فيه : « هو إمام أهل الشام » وفى موضع آخر يقول : « كان ثقة مأموناً صدوقاً ، فاضلاً حبراً ، كثير الحديث والعلم والفقه »[٩]

ويقول ابن خلكان : « هو إمام أهل الشام لم يكن بالشام أعلم منه »[١٠] . ويقول النووى : « كان إمام أهل الشام فى عصره بلا مدافعة ولا مخالفة »[١١] . ومما يدلك على عظم مركزه فى الفقه أنه أجاب فى سبعين ألف مسألة فقهية ، وقيل ثمانين ألفاً[١٢]

ومما يدلك على علو مقامه وتقدير العلماء له ما ذكره ابن خلكان من أن « سفيان الثورى بلغه مقدم الأوزاعى فخرج حتى لقيه بذى طوى ، فحل سفيان رأس بعيره من القطار ووضعه على رقبته فكان إذا مر بجماعة قال الطريق للشيخ »[١٣] ، وناهيك بمنزلة سفيان الثورى ورفيع مقامه فى العالم الاسلامى . ولا يغيبن عن البال أنه كان فضلاً عن اشتهاره بالفقه إماماً فى الحديث[١٤] . ويقول كولدزهير : روى عبد الرحمن بن المهدى

(١) ابن خلكان ١ : ٣٤٥ ، النووى ١ : ٣٨٢ ، وطبقات الحفاظ للذهبى ١ : ٣٩ (٢) كذا ضبطها النووى ١ : ٣٨٢ (٣) ابن خلكان ١ : ص ٣٤٦ (٤) نفس المصدر (٥) النووى ١ : ٣٨٣ (٦) النووى ١ : ٣٨٤ ، ابن خلكان ١ : ٣٤٦ (٧) النووى ١ : ص ٣٨٣ ، ابن خلكان ١ : ص ٣٤٦ (٨) ابن خلكان ١ : ٣٤٦ (٩) النووى ١ : ٣٨٢ (١٠) طبقات الحفاظ ١ : ٣٩

(١) ابن خلكان ١ : ٣٤٦ (٢) نفس المصدر (٣) طبقات الحفاظ ص ٣٩ (٤) ابن خلكان ص ٣٤٦ (٥) النووى ١ : ٣٨٢ (٦) النووى ١ : ٣٨٤ (٧) النووى ١ : ٣٨٢ يظهر أن قتادة والزهرى كانا معاصرين للأوزاعى فسمع عنهم وبذلك نعدهم أساتذته ، ومن ثم رووا عنه ، ولذلك يصح لنا تجاوزاً أن نعدهم من تلاميذه (٨) النووى ١ : ٣٨٢ (٩) طبقات الحفاظ ١ : ص ٣٩ (١٠) ابن خلكان ١ : ٣٤٦ (١١) النووى ١ : ص ٣٨٢ (١٢) النووى ١ : ٣٨٤ (١٣) النووى ١ : ٣٨٤ (١٤) وابن خلكان ١ : ٣٤٦

أن الأوزاعى ليس ثقةً فى الحديث ، ولـكنه يعلم كيف يطبق هذه الأحاديث للحصول على حلول المسائل الفقهية [١]

ولم يكن الأوزاعى يتمتع بمركز دينى كفقيه ومحدث فحسب ، بل يظهر أنه كان يتمتع بمركز دنيوى رفيع ، فقد ذكروا أنه كان عظيم الشأن بالشام « وكان فيهم أعز من السلطان » [٢]

ولعل القصة الآتية تلقى نوراً على ماذهبت اليه : قال عبد الحميد ابن حبيب بن أبى العشرين : سمعت أميراً كان بالساحل ، وقد دفنا الأوزاعى ونحن عند القبر يقول : رحمك الله أبا عمرو ! فقد كنت أخافك أكثر ممن ولانى » [٣] . وبعد ، فقد تبين لك من هذه الروايات الـكثيرة المحفوظة فى الأصول الأدبية والتاريخية ما كان عليه الأوزاعى من الشهرة ، ولا نعرف ، لاندثار مذهبه ، واندفاع المؤرخين فى منح المديح والألقاب ، صحة هذه الأقوال ، ولـكنها على أية حال تحمل بين طياتها الشئ الـكثير عن عظم الأوزاعى وشهرته

والروايات مجمعة على أن الأوزاعى كان إمام أهل الشام فى عصره ، وأنه كان على جانب عظيم من المقـدرة فى الحديث والفقه ، وتطبيق الأول على الثانى للحصول على حلول للمسائل الفقهية المختلفة

مذهب الأوزاعى :

انتشر مذهب الأوزاعى ، المسمى باسمه ، مدة من الزمن فى سورية ، وبلاد المغرب ؛ وذكر صالح بن يحيى أن مذهب الأوزاعى دام فى الشام نحو مائتى سنة ، وأن آخر من عمل بمذهبه قاضى الشام أحمد بن سليمان بن جَبَلَة ، وقد ظلت المغرب متبعة مذهبه مدة لا تقل عن أربعين سنة [٤]

وسرعان ما انهزم مذهب الأوزاعى أمام غيره من المذاهب ، والسبب فى ذلك — كما يظهر — أن الأمراء وأصحاب السلطة ساعدوا غيره من المذاهب نصراً لسياسة أو تحقيقاً لغرض ، كما كانت الحالة مع المذهب الحنفى [٥] ، ويقول صالح بن يحيى « ثم تناقص بمذهب الأمام مالك على يد عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الأموى » [١]

ومن المعلوم ، أن مذهب الأوزاعى هو أحـد المذاهب المندرسة ، ويأبى التاريخ أبقى على هيكله فى طواياه ، فانه لم يسجل إلا نزراً يسيراً من فقهه [٢] لا يمكننا من الحـكم عليه . إلا أن هذا النزر يلقى نوراً على ماهيته ، وقد دلتنى قراءته إلى أن اهتمام الأوزاعى بالمسائل الفقهية كان من الوجهة العملية ، ولم يكن كصنوه أبى حنيفة مشتغلاً بالفقه من وجهته النظرية . كذلك دلتنى قراءة هذا النزر اليسير إلى أن الأوزاعى لم يكن يستعمل الرأى ، بل إنه — كما فعل غيره — عدل الى الـكتاب والسنة ، ففى كلام الأوزاعى عن « سهم الفارس والراجل وتفضيل الخيل » [٣] وعن « المرأة تُسبى ثم يُسبى زوجها » [٤] وعن « ماعجز الجيش عن حمله من الغنائم » [٥] وعن « قطع أشجار العدو » [٦] — ففى كلامه عن أحكام هذه ، وعن جميع ما ورد فى كتاب « سير الأوزاعى » يستعمل الحديث والـكتاب

وقد يطول بنا المقام إن ماشينا فهرس الفصل فى سرده ، فلا داعى للتكرار ، ومن أراد التثبت فليرجع إلى هـذه الأقوال فى مظانها [٧]

ولقـد ذهب بعض المؤرخين ، أمثال كولد زهير ، إلى أن الفقه الأسلامى قد تأثر بالفقه الرومانى . وأنا أقول ، إن كان هذا صحيحاً ، فأحرِ بالأوزاعى أن يكون آخر المتأثرين به لأنه من أبعد الفقهاء عن الرأى ، ومن أقربهم الى أتباع الـكتاب والسـنة . وبذلك قال أبو حاتم : « الأوزاعى إمام متبعٌ لما سمع » [٨] والـكتاب والسنة أبعـــد الأشياء عن التأثر بالفقه الرومانى

(البقية على صفحة ٤٣٨)

(١) تاريخ بيروت ص ١٥ (٢) كتاب الأمام للشافعى ٧ : ٣٠٣ — ٣٣٥ تحت عنوان كتاب سير الأوزاعى ، ففى هذا الفصل جملة صالحة عن أقوال الأوزاعى فى المسائل الفقهية (٣) كتاب الأم للشافعى ٧ ص ٣٠٦ (٤) نفس المصدر : ٣١٥ (٥) نفس المصدر : ٣٢٣ (٦) نفس المصدر : ٣٢٤ (٧) كتاب سير الأوزاعى ٧ : ٣٠٣ — ٣٣٥ (٨) النووى ١ : ٣٨٤

(١) II P 12 Muham.Studien (٢) تاريخ بيروت ص ١٥
(٣) النووى ١ : ٣٨٤ (٤) صالح بن يحيى فى تاريخ بيروت ص ١٥
(٥) Moslem theology P 98